تراجم شرقية وغربية

أحمد أنور الجندي

اقبـــــال

الشاعر الذى اهتدى إلى طوبيا — الباكستان — ومات قبل أن يراها حقيقة واقعة .. لا أعتقد أن شاعراً عقد رؤيا وتحققت على أوسع نطاق كما وقع لحلم إقبال . إن جناح قد سار على هدى إقبال و نفذه على الطبيعة ، ذلك الأمل الذى نظمه الشاعر الكبير . وكان جناح يشيد باقبال ويقول : إنه دليلى ورفيقى .

دعا إقبال إلى الباكستان عام ١٩٣٠ وجاءت الرابطة الإسلامية التى يتزعمها جناح عام ١٩٤٠ تنادى بتحقيق حكم الرائد الأول .

ولست أرى فى تاريخ الشرق كله شاعراً أفلح فى أن يكون سياسيا كما أفلح إقبال ، ذلك لأن بين السياسة والشعر مدى واسعاً ، السياسة بأساليبها الواقعية ومناوراتها وعواصفها ، والشعر بموسيقاه وفنه وروحانيته .

عمل إقبال فى حزب عصبة مسلمى الهند وترأس مؤتمره المنعقد فى « الله أباد » عام ١٩٣٠ ووضع أسس باكستان فى الخطاب الذى افتتح به المؤتمر حيث قال : « أود أن أرى البنجاب وولاية الحدود الشماليه الغربيه والسند وبلوخستان دوله واحدة مستقلة » .

ولد إقبال عام ١٨٧٦ وسافر إلى أوربا عام ١٩٠٥ فتعلم القانون فى بريطانيا ودرس الفلسفة فى ألمانيا ومع أنه نشأ فى بيئة مترفه فانه بلغ فى الفهم إلى أعماق ضمير الإنسانيه واهتدى بالقلب والعقل معاً .

ولعل من أسرار حياة إقبال التى دفعت به هذه الوجهة الإسلاميه الخالصه ما ذكره من توجيهات والده قال : « عودنى أبى تلاوة القرآن الكريم بعد

صلاة الصبح فى كل يوم . وهو كل ما رآنى سألنى ماذا أصنع فاجيب بانى أقرأ القرآن . فيقول كلمته الخالدة : « إقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك » .

يقول اقبال : « منذ ذلك اليوم بدأت أفهم القرآن بروح جديدة ، وقد كان ملهمى فى كل ما نظمت .

عندما عاد اقبال من أوربا عمل محاميا ، ولكن الأدب والشعر الذى أحبه دفعه عن ميدان القانون الى ميدان الأدب . وبعد أن كان ينظم باللغة الأورديه بدأ ينظم بالفارسيه نظراً لأنها اللغه التى توصل الى أكبر عدد من المسلمين ، وكان آخر شعر قاله قبل وفاته فى ١٢ ابريل ١٩٣٨ يحمل معنى ايمانه : « أريد أن أقول لكم ما علامة المؤمن ،انها بسمة على شفته عند الأجل المحتوم »

* * *

ان حياة اقبال فصولا وجيزة . حياة سهلة مبسوطة لا عقد فيهـــا ولا مفاجئات ، ولكنها غنية خصبة عميقة الغور ، انه ولد فى البنجاب . وتعلم ووصل فى الثقافة الى درجة عاليه ، فلما رحل الى أوربا وحمل الدكتوراه فى الفلسفة وعاد منعه ضعف قوه ابصاره من العمل فى الحكومه فاندفع الى الهدف الذى وطد نفسه له وهدته فطرته اليه وهو الشعر الإسلامى . ان بيئتـــه الإسلامية التى ربى فيها ، وهذا الفهم العميق الذى أهداه اليه والده عندما قال له كلمته الخالدة : « اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك » تدل على مدى خصب البيئة الأولى للعمل الروحى ، وللاتجاه الإسلامى الخالص ، فلما ذهب الى أوربا زادته معرفته بها قوة على رغم فكرته وتكوين عقيدته التى عاش لها طوال حياته . وهو الإيمان بالشرق .

لقد درس كل فلسفات الغرب وثقافته . ثم آمن أخيراً بأننا نستطيع فى الشرق أن

نأخذ ونستطيع أيضا أن نعطى وأن لدينا الكثير . وأننا يجب أن نؤمن بأنفسنا . وعاش فى معانى القرآن والروحية وحاول محاولة صادقة أن يمزجها بالحياة والحضارة والفكر ونجح فى محاولته إلى حد كبير .

نعم آمن إقبـــال بالشرق وجعل الروحيـة الإسلامية مادة شعره فهو شاعر « إنسانى » أولا وقبل كل شىء يؤمن بعالمية الحضارة . ويرى أن من حق الشرق أن يأخذ منها خيرها على أن يحتفظ بمقومات شرقية فى حدود « ضبط النفس وإطاعة الشريعة والتقرب إلى الله » ثم هو إلى ذلك شاعر الحب الإنســـانى الرفيع المنزه عن الشهوة والهوى . الحب الذى يمز الشخصيه الإنسانية ويقوم الذاتية الفردية . وشعره ينتظم الفلسفة والتصوف والحكمة فى مزاج معتدل وفى صياغة موسيقية عذبه . وهو يؤمن بأن الفن للحياة خالصـا .

ويصور الدكتور هيكل ، مذهب اقبال فى نظريته الذاتيه التى آمن بهـا ودافع عنها بقوله : « الذاتيه عنده هى الروح المنشىء الذى أودعه الله الإنسان وجعل العمل والدأب فيه وسيلتنا إلى انتشار هذه الروح فيما حولنا وإبراز ما تنطوى عليه نفوسنا من قوة وخير . وكما ينمو جسمنا حتى يبلغ كماله ، وكما تزدهر الشجرة وتثمر . كذلك يجب أن تنمو الذاتيه حتى تبلغ كمالها . ويجب أن تزدهر وتثمر وهى لا تنمو بحكم الطبيعة كما ينمو الجسد ؛ بل هى تنمو بالسعى والعمل الدائب الذى لا ينقطع . ونموها وازدهارها وأثمـارها هو الذى يجعل للحياة قيمتها وهو الذى ينشىء فى الحياة جديداً . وهو الذى يضفى علينا القوة ويمنعنا تحكم الغير فينا . أما القعود عن العمل فيجعلنا عالة على غيرنا نتسول من فضله ونصبح أذلة له . ونفقد بذلك حريتنا .. »

وهدف إقبال فى مذهبه هذا هو أن يتحرر الشرق من سلطان الغرب وسيطرته الفكرية ؛ وقد صور إقبال رأية فى الحضارة الغربية فقال : « إن

الأفكار السياسية لأمم الغرب أحدثت انقلاباً لم يقتصر شره وشرره على الهند وحدها بل اندلع لهيبه وأحاط بالعالم الاسلامى كله . ويود شباب المسلمين اليوم تطبيق هذه المبادىء وإقرارها فى حياتهم العملية وهم منساقون إلى ذلك مسرعين دون أن يتبينوا البواعث من العلل والأسباب التى حملت أمم الغرب على اعتناق تلك المبادىء ، وكان على هؤلاء الشباب أن يذكروا أن قيـــام المسيحية بأوربا فى بداية أمرها كان يرتدى مسوح العزلة والرهبانية . ثم تبدلت الأمور فاتخذت الكنيسه شكل الحكومه المتجبره ومظهرها فى الدولة مما نشأ عنه قيام مارتن لوتر بثورة ضد الكنيسة ؛ على أن هذا الثائر لم ينشد بثورته إصلاحاً سياسياً أو إحداث انقلاب وتغيير يمت إلى هذا المعنى بصلة ما اذ ليس للسياسة ولا لأنظمة الحكم أى ارتباط بأصول المسيحية . ولو تتبعنا الأمر على جليته لالتمسنا المعذرة للوثر ؛ على أننى أعتقد شخصياً أن لوثر نفسه ما كان يتوقع أن تكون نتيجة ثورته هذا الانقلاب الفكرى الجرىء الذى انتهى إلى تعدد المذاهب الخلقيه فكل ما صنعه باقامة ثورته أن مزق رباط الوحدة وفتح ثغرات جديدة فى دنيا المسيحيه وأصبح أنصاره أنفسهم شيعاً وأحزاباً يصعب حصرها على المتتبع ، ومن ثم أخذت الأمم المسيحيه تنفصل عن كل كل معنى إنسانى فى الإخاء والاتحاد ، وانزلقت إلى مضايق الحقوق القوميه والإقليمية والعنصرية والطائفية على أساس تفهم الحياه وتركيب معظمها على هذا الوجه وحده .

ولذلك ليس بمستغرب أن نرى انهيار صرح الأخلاق التى نادت بها وصايا المسيح فقد ذهبت كأن لم تكن بالأمس . وحلت مكانها فى حياة الأقوام أنظمة السياسة الجديدة وانحصر أمر الدين بأعماله ومعاملاته فى حياة الفرد داخل نفسه وفى حدود ذاته دون أى اتصال بالحياة الدنيويه ؛ ولكن

الإسلام يقرر أن الإنسان وحده كاملة دون فصل فى الأحكام والمصائر بين المادة والروح إنما هى أجزاء متعددة لكل واحد . . »

هذه هى روح الفلسفة « الإقباليه » وهو خلاصة المعنى الإسلامى الأصيل الذى ظل مطوياً من تضاعيف التقاليد والأوهام التى حملها الفقهاء والصوفية لحقيقة الإسلام حتى تاه بها .

جاء إقبال ليكشف عنه ، فكان رمز الانطلاقه الروحيه الخالصه لفجر جديد فى الشرق الإسلامى . .

جنـــــاح

من ذا الذى يذكر الشرق فى دفعته القوية نحو مجده ولا يذكر علماً من أعلام الكفاح فى سبيل هذه السيادة والعزة ، هو محمد على جناح الذى كون دولة ضخمة دون أن يريق نقطة دم حتى استحق أن يطلق عليه لقب القائد الأعظم والذى ما زال فى باكستان الرائد الأول لكل فروع النهضة وخيوط الأمجاد التى تدافعها أيدى قادته لتصل به إلى القمة .

ولست هنا أريد أن أكرر ما نشرته الصحف والكتب عن جناح وجهاده السياسى الضخم فى سبيل إنشاء الباكستان . ولكنى هنا وفق منهاج الكتاب أدرس نفسية هذا الرجل . هذه النفسيه القوية المصممه التى صمدت الأحداث حتى استطاعت أن تحقق هدفها .

لقد أجمع خصوم جناح وأصدقائه على أنه كان قوى الشخصية باهر الشمائل وأنه كان طموحا نزيهــا مستقيما على حظ من الشرف الشخصى عظيم كما قال الدكتور كرشنالال أحد خصومه ـ الذى سجل فى كتابه عن الهند والغرب أنه لا يوجد رجل بذلت بريطانيا لإغرائه ما بذلت ما بذلت لإغراء جناح وكسب معونته فرفض جميع المغريات ومضى على نهجه فى الاستقلال » .

والحق أنه لم يتفق لرجل فى مثل ثراء جنـــاح أن يشغل نفسه بالعمل السياسى وأن يرهق نفسه بهذه المهام الخطيرة المجهدة ، لولا أنه كان يؤمن فى قرارة نفسه بوطنه وأخوانه الذين كانوا فى حاجة إلى أن يتحرروا وأن يحققوا أملا يملأ نفوسهم . ولذلك وضع كفايته وأعصـــابه وماله وجهده فى هذا السبيل مخلصاً ، وظل يدفع هذا الجبل الضخم مع إخوانه حتى زحزحه من

مكانه ، فذهب الليل والظلام ، وكشف عن الصباح والنور .

ولا شك أن محمد على جناح قد اعطى للشرق كله درساً فى الخلق . فقد كان الساسة يفصلون بين السياسة والخلق ، ولكنه جمع بينهما وربط بين الدهاء واليقظة والحرص وهما من صفات السياسى . وبين الخلق المتين والكلمة الصادقة والعهد الوثيق الذى لا يتخلف ولا يهن ما دام صاحبه قد أعطاه .

ولو كان غير جناح لما استطاع أن يصمد أمام إغراء بريطانيا ، لولا أنه كان يحمل نفساً عازفة عن الزخارف والألقاب والمطامع ، وكان غنياً بطبيعته الأصلية عن كل إغراء .

وقد جمع جناح بين شيئين قل أن يجتمعا لإنسان هما الإيمان بالمثل العليا والتقيد بالنزعة العملية . وكما كان مؤمنا إلى أبعد الإيمان بدعوته متحمسا لها ، كان لا يهمل الوسيلة إلى دراسة كل شىء والنظر فى كل أمر والاستماع إلى كل رأى . ويدل هذا ولا شك على قوة النفس وسلامة الفطرة .

وعرف جناح بحربه لسياسة العاطفة وإيمانه بمخاطبة عقول الجماهير بالحقائق الملموسة لا بالألفاظ المثيرة التى تطير فى الهواء ولا تخلف وراءها فى أعماق النفس شيئا . وقد عرف عنه الاعتزاز بكرامته واحترام نفسه إلى أبعد حد .

ولقد كان لجناح داره الفخمة فى نيودلهى ، وكان محامياً ناجحاً بلغ ما تقاضاه من الأتعاب فى إحدى قضاياه مليون روبيه أى ما يساوى ثمانية آلاف من الجنيهات . وكان أنيقاً يلبس البدلة الإفرنجية البيضاء .. وقد تعلم فى بريطانيا وانضم إلى حزب المؤتمر الوطنى الهندى ، ثم أنشأ الرابطه الإسلاميه ، وقد قاسى الاضطهاد وسجن .

ولقد أحب جناح ووجد هذه العاطفة الحلوة فعاش معها فى عش الزوج سنوات كانت من أسعد سنوات حياته العامرة بالكفاح والمتاعب .

ومن أبلغ مظاهر نفسيته أنه رفض أن يحصل على مرتب مدى ولايته للدولة ولا عن أسفاره إلى أوربا فى سبيل الدفاع عن قضية بلاده .

وقد تمتع بثقة غاندى وإعجابه حتى أنه هو الذى لقبه بالقائد الأعظم ؛ وكان سكرتير الحزب المؤتمر ، غير أنه لم يلبث أن عارض سياسته التى تهدف إلى عدم استعمال العنف وانشق عنه واحتضن مطالب المسلمين . وكان قد تبين لجناح بعد كثير من المتاعب أن الهندوس يتوقون إلى فرض سيطرتهم على المسلمين وأنه لا سلم ولا استقرار إلا إذا انفصل المسلمون فى كيان خاص .

وفى عام ١٩٤٠ نادى جناح بوجوب تأسيس دولة الباكستان فلقى معارضة الهندوس والبريطانيين جميعاً . ولكنه كان موقناً بأن هذا هو الحل الوحيد لاقرار السلام . وقد أنكر جناح أن العصيان المدنى يصلح وسيلة للكفاح وكان يقول بسلوك الطرق الدستورية القانونيه حتى أنه لما قيل أن فى الهند الحكومه البريطانيه وحزب المؤتمر صرخ بكل صوته قائلا : « ان فى الهند طرفاً ثالثاً هو الشعب المسلم » .

غاندى

٣٠ يناير ١٩٤٨

« ان ايمانى بالهندوكيه لايتسم بسمة الطائفيه ، وانما يشمل خير ما أحطت به من فضائل الاسلام والمسيحيه والبوزيه والمجوسيه ، ان الحق هو عقيدتى والبعد عن العنف وسيلتى ، ولقد كفرت بشريعه السيف الى غير رجعه »

سافر غاندى فى شبابه الى انجلترا ليدرس القانون ، وعاهد أمه على ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقرب امرأة ؛ ثم عاد الى أفريقيا فراراً من فشله ثم أقام فى ناتال .

وهنـــا بدأ له الطريق الذى سار فيه إلى نهاية حياته ، ووجد مفتاح دعوته فقد كـانت أفريقيا تفرق بين البيض والملونين من سكانها .

وذات يوم كان يحمل تذكرة فى الدرجه الأولى ، فلما كان بالقطار أمره المفتش أن يدع مكانه حتى لا يضايق البيض الجا سين معه ؛ وأن يذهب إلى عربة الدرجة الثالثة ، فلما رفض غاندى انتزعه من مكانه قسراً وألقى به على رصيف المحطه حيث أمضى ليلة قارسة البرد فى حالة نفسيه أليمة .

فلما قص أمر ذلك على بنى وطنه ، قالوا له : انهم يعاملوننا بأقسى من ذلك .. هنا تفتحت نفسه الى هذا الحق المهضوم الذى يجب أن يكافح لاسترداده ومنذ اليوم بدأ يعمل ليرد الكرامه لبنى وطنه . وجرد نفسه للدفاع عن هذه الكرامه .

واستجابت طبيعته النفسيه التى قرأت المسيح الى أن عدم التعاون من غير عنف هو خير وسيلة يسلكها لهذه الغاية ، وبدأ العمل الايجابى بأن

أنشأ للهنود قرية فى مكان عملهم وعاش معهم فيهـــا وأنشأ لهم جريدة تنطق بلسانهم يدافع فيها عن الحق الطبيعى لهم ، وكـان يهتدى فى تجربة هذه القريه بالأسس التى دعا اليها تولستوى .

وقال غاندى : ان الهنود لن يتعاونوا مع الحاكمين اذا لم يعترفوا لهم بحقهم فقبضت السلطات البريطانيه على مئات الألوف منهم فلم يهن عزم غاندى حتى اضطروا الى مفاوضته .

وعاد غاندى الى الهند فى أوائل القرن العشرين ليكرر نفس التجربة فى الوطن الأكبر ، فلما لم تحقق له بريطانيا ما يريد ، بدأ بعد الحرب الأولى : يقاطع تجارتها ويدعو الى المغزل ليحرر الهنود من السيطرة الاقتصـادية وكان يؤمن بالتعاون من غير عنف ، كما عمل فى نفس الوقت على تحرير الهنود من الصراع الطائفى فبدأ يحرر المنبوذين الذين يبلغون عشرات الملايين .

وبدأ معركة الملح فدعا الى الزحف فانضم له ألوف الألوف ، وظل يسير هو وأتباعه مسافه مائتى ميل حتى وصلوا الى داندى على ساحل البحر . وخاض فيه باقدامه ، وبعد أن ملأ دلوه من مائه ، قفل راجعا الى الشاطىء ليقطر ما حمله من ماء ويستخرج ما به من ملح .

وقد ألقت بريطانيـــا فى هذه الحركة باكثر من مائتى ألف فى أعماق السجون ، ولكنه انتصر اخيراً وألغى قانون احتكار الملح .

وعندما وقع الخلاف بين الهندوس والمسلمين فرض على نفسه الصيام حتى الموت ، وآلى على نفسه ألا يرجع عن ذلك الا اذا انتهت الاضطرابات ولم تمض أيام حتى كف الفريقين ، وقد جعل من هذا الصوم سلاحه من كل خلاف بينه وبين المستعمرين فكان وسيلة لتحقيق مطالبه والنزول على رأيه.

وفى حياة غاندى أكثر من امرأة ، فيها آنى بيزانت الجميلة التى وجهت

زعامته الاسطوانيه إلى زعامة كفاح ، وسارجيني نايدو التى حررته ببساطتها فقد كانت شاعرة شبوبة العاطفة مرهفة الخيال .

وبعد : فهذه هي قصة غاندى الإنسان .

كان غاندى نموذجا جديدا غير مسبوق فى دنيا الزعامة والبطولة فى الشرق كان أشبه بالأسطورة الخرافية ولولا قرب العهد به لظن ناس أنه من الشخصيات التى يرسمها الشعراء .. الرجل الذى أدخل إلى أساليب السياسة : المغزل والشأة والمقـــاومة السلبية والزعيم الذى أحاطه جو من الغموض والسحر . فنزع الملابس الأوروبية واكتفى بالإزار الأبيض يستر به كامله ، ويسكن فى كوخه المبنى من القش . طعامه من لبن الماعز ، والخضر المسلوق .

لم يشرب الخمر ، ولم يذق اللحم ولم يقترف الزنا ، تزوج فى سن الثالثة عشرة ، وأنشأ صناعة المغزل وعممها فى أنحاء الهند ، وابتدع فكرة الصوم فى سبيل الوصول إلى مطالبه ، ونقل من تولستوى الدعوة إلى المقـــاومة السلبية ، وأخذ من المسيحية روح التسامح والسلام .

ولا شك أن هذا الأسلوب الذى ابتدعه « غاندى » كان بعيد الأثر فى ايقاظ الهند ؛ فانه استطاع فى خلال أربعين عاما . أن يبعث هذه الأمة حتى تستطيع أن تقف فى صف الصدارة مع الدول الكبرى فى العالم ويعمل حسابها فى الشرق كقوة فعالة بعيدة الأثر .

آمن بالشرق فى أشـــد صوره غرابة . آمن بالشرق فى صوره الهندوكيه وتقاليدها ومقدسها وعاداتها ؛ لا يتعداها ، ويتعصب لها .

ووصفه أحد حكام الهند البريطانيين بقوله بقوله : « ليس فى مظهره شىء خارق ، فقد جاء فى إزار أبيض ، وعلى رأسه غطاء منسوج باليد ، عارى الساقين ، حافى القدمين ، فكان أول ما خطر لى حين دخل إلى الحجرة أن

منظره ومحياه لا شيء فيهما يلفت النظر .

ولكن ما أن فتح فمه وتكلم ، حتى تغير هذا الرأى كل التغيير ، فهو رجل مستقيم لا يناور ولا يداور ، ولغته الإنجليزية ممتازة ، وهو يحسن التعبير بها عن نفسه ، مع حسن وزن للكلمات التى ينتقيها لعباراته . فهو رجل لا ترى فيه موضعاً للتردد ، وفى كل كلمة ينطق بها تحس نبرة الصدق والإخلاص إلا فى بعض المسائل السياسية .

أما عقيدته الدينية فهى راسخة كل الرسوخ ، وهو مؤمن إلى حد يقرب من التعصب الأعمى .

* * *

لا شك بأن غاندى زعيم شعبى بكل معنى الكلمة ، قد درس بيئته دراسة نفسية بعيدة المدى ، وقد مكنه ذلك من أن يتسلط عليها فتؤمن به ، ويجمع من حوله لأول مرة فى تاريخ الهند الحديث . الهندوس والبراهمة والأنجاس .

فهذا المظهر الغريب الذى ارتضاه لنفسه ملبساً ومأكلا وحياة ، ليدل على القدرة الخارقة فى الوصول إلى قلوب الناس .

فهو الذى يحرق ملابسه الإفرنجيه ويدعو على ضوء الحريق إلى أن يستعاض عنها بنسيج من إنتاج المغزل اليدوى العتيق ، ويقول لأتباعه « اخلعو عنكم هذا الرجس » .

وكان يركب الدرجة الثالثة بعد أن تكون قد نظفت وخصصت له بكاملها وعندما سافر بالباخرة إلى لندن ، ركب مع حاشيته فى الدرجة الدنيا على سطح الباخرة ورفض أن يحقق ضد الدوسنطاريا ، كما رفض أن يشرب اللبن لأن

الأهالى أرهقوا البقر والجاموس ، وكان يكتب خطاباته على ظهر أوراق الإعلانات التى كانت تأتيه فى البريد .

وأقام مزرعة على نسق مزرعة تولستوى ، بها صومعة مكونة من مجموعة من الأكواخ .

وقد كان واسع الدعاية لوطنه ودعوته ، فقد كان أسلوبه فى الصوم والعصيان والمغزل من الرؤى التى كانت تثير الناس فى كل مكان .

فلما سافر إلى انجلترا عام ١٩٣١ ليحضر مؤتمر المائدة المستديرة ، كان ينتقل من الخان الذى نزل فيه حيث يعقد المؤتمر فيمشى خمسة أميال فى قلب المدينة والناس يحيونه ببشاشه ، ويتحدثون عن نبى الهند .

*

ومن أخطر مواقف غاندى التى هزت الامبراطورية الزحف إلى البحر لإخراج الملح عندما أعلنت بريطانيا احتكار بيع الملح فى الهند .

وقد ظل غاندى يمشى ثلاثة أسابيع وخرج الناس وراءه بالآلاف ؛ فلما وصل الى الشاطىء كان وراءه خمسين ألفاً بعد أن اعتقل فى مراحل الطريق أكثر من مائه ألف . ولما وصل الى البحر التقط قطعه من الملح ، فكان ذلك ايذانا بدعوة الهنود الى استخراج الملح ، وبذلك كسر قانون بريطانيا وحطم احتكارها .

ومن أقوى الآثار التى وصل اليها فى تحويل العقليه الهنديه رفع لعنة النجاسه عن المنبوذين وكفل المساواة التامه لهم ؛ وقد نجح غاندى فى أن يفتح معابد البراهمه للأنجاس اعلاناً بزوال اللعنه عنهم فى كلكتا وبنارس ودلهى .

وكان الصوم عند غاندى سلاحاً رهيبا بعيد الخطر ، طالما استعمله لردوع

بريطانيا أو ردع خصومة أو تأديب أنصاره .

ويقول : « ليس صومى إلا محاولة منى لتذكير الناس بما فعلوا من هول فيردوا الله إلى قلوبهم التى أخرجوه منها »

* * *

ودخل غاندى السجن مرات ، وكان سجنه من آيات قوة دعوته . وكان يرحب بالسجن ويقول : « ينبغى أن نوسع أبواب السجون لتستقبلنا أفواجا فطريق السجن والاضطهاد هو طريق الحرية والنصر . فينبغى أن ندخل السجن فرحين . . »

وعندما كان مسجونا كانت جماهير كبيرة تتجمع فى المساء أمام سجنه لتؤدى لزعيمها واجب التكريم . تقف الساعات الطوال كأنما هى أمام معبد من المعابد ، فاذا أعلن الناقوس بدء الزيارة ، ارتفعت من الواقفين موجات الفرح والدعاء .

وقد استطاع غاندى أن يحتل فى قلوب الناس منزلة أعلى من منزلة الأنبياء وبدأ أن يكون إلها ـ بل هناك معبدان فى الهند أخذ الناس يعبدون فيهما غاندى وهو حى .

ولست تستطيع أن تحدد بالضبط أسلوب دينه أو دعوته ، فهو يأخذ من المسيحية أن لا تقاوم الشر بالشر ، وكان يبارك على لاعنيه . وهو يدعو إلى « اللاعنف » ويبقى بعد ذلك متعصباً لهندوكيته فى أدق دقائقها ويقول : « إن دينى يزودنى بكل ما أحتاج إليـــه لنضوجى الداخلى ، لأنه يعلمنى الصلاة . ولكنى أرجو أن يستكمل كل إنسان غيرى نضوج نفسه عن طريق ديانته »

إننى مقتنع بأن الله يوما من الأيام سيسألنا عن قيمتنا . وعما نفعل ، لا على الإسم الذى نطلقه على وجودنا وأفعالنا . . »

* * *

ولما كانت البقرة من عوامل الصراع العنيف بين المسلمين والهندوس فقد وقف يقول : « إنى مع إصرارى على حماية البقر من الذبح على اعتبار دينى . لا أرى معنى لاستنكار ذلك والثورة له حين يقترفه المسلمون ، فى حين لا نحرك ساكناً لذلك البقر الذى يذبحه الإنجليز فى كل يوم ، فكل شغب يقوم بسبب ذبح المسلمين للبقر ، إنما هو لهو فارغ ، وجهد باطل ، لم يؤد إلى استنقاذ بقرة واحدة . ولكنه أراق دماء بشر وأخوة . وجعل بين الإخوة دما وثأراً وأحقاداً

ولطالما ندد غاندى ببريطانيا وقرعها بعباراته النارية الساخرة . . « لئن كان هناك إله فى السماء حقاً لتسألن أمامه إنجلترا عما اقترفت فى حق الإنسانية بأعمالها فى الهند . تلك جريمة لا تعدلها جريمة فى التاريخ البشرى قاطبة . . »

فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ انطوت حياة هذا الرجل الذى شغل الأذهان قرابة نصف قرن . فهو قد عاد من إنجلترا عام ١٨٩١ بعد أن حمل أعلى شهاداتها فى القانون فسافر إلى جنوب أفريقيا ، وهناك وجد مجال المدرسة التى مهدت له الدعوة الكبرى فى الهند . فقد وجد الهنود هناك يضطهدون فأمضى بضعة وعشرون عاما وهو يتحدث عن الأجناس الملونة ، ولقى فى سبيله عنتاً كبيراً . فلما عاد إلى الهند عام ١٩١٢ ، بدأ نضاله على هذه الصورة المثيرة التى صورنا ، وأعلن أول حركة للعصيان المدنى ومقاطعة البضائع الأجنبية فى باردولى عام ١٩٢٢ ، ودخل السجن فأمضى فيه عامين وخرج عام ١٩٢٤ وقد هز الهند وهز بريطانيا .

وأقام غاندى الصلوات والأناشيد والابتهالات فى كل مكان ، وجعل الدين أساس دعوته السياسية .

وجعل الشاه والمغزل رمزاً للهند الجديدة .

ولم يمت غاندى إلا بعد أن حقق لبلاده أوسع ما كانت تتمنى من أمل فى سبيل الحرية . وقرب بين البراهمة والهندوس والمنبوذين حتى كادت أن تلغى ما بينهم من فوارق ظلت قائمة آلاف السنين ، واستحق من أجل ذلك أن يعبد وأن يقول عنه مؤرخ غربى : « إن غاندى هو المسيح عاد إلى الأرض » .

طـــاغور

« أنا رجل صوفى وجهادى الأكبر فى الحياة هو البحث عن الجمال المطلق الذى يهدينى إلى الله . وقد أبصرت هذا الجمال فى السماء الصافية والزهرة الناضرة والجدول الرقراق . والعذارى الحالمات الساحرات . ولكن النشوة العلوية لم تهز قلبى . ولم تفتح مغاليق بصرى إلا عندما استطعت الحياة فى جنة المعانى الماثلة فى وجوه الأطفال . وفى الحق أنى لم أسعد ولم يتصل ضميرى العاجز بضمير الله إلا يوم أدركت أن الطفل هو المثل الأعلى ، وأنه فى هذه الفانيه رسول الله .. »

فى هذه العبارات الشعرية يصور طاغور مفتاح حياته ، ويرسم صورة نفسه بعد أن بلغ القمة ووصل إلى جادة الحياة وماتت من حوله المتاعب والأهواء واستراح من عناء التصعيد فى سبيل المجد .

لقد بدأ طاغور حياته على نحو غريب ، ولعل أهم ما يميز طفولته هى العزلة . لقد كان أبوه كثير التغيب فلم يره إلا لماما . ولكنه عندما كان يحضر يملأ الدار بوجوده . فترك فى حياته أثراً عميقاً لا تقوى الأيام على محوه . وماتت أمه وخلفته فى رعاية خدمها . فكان كثيراً ما يأوى سحابة نهاره من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس إلى نافذته يرسم فى مخيلته ما يجرى فى العالم الخارجى . فأغرم بالطبيعة من عهد لا يكاد يذكره « آه .. لقد كان صوابى يطير جنونا حينما كنت أتأمل كسف السحاب تلهو فى السماء بعضها بعضا . فأحسست - حتى فى تلك الأيام الباكرة من حياتى - أن معى رفيقاً يلازمنى وزميلا لا يفارقنى ، ولقد كان لى أبداً زميلا عطوفا مخلصاً . وإن كنت لم أعرف ماذا أسميه ، وبماذا أناديه »

لقد هام بالطبيعة هياما شديدا وكانت له الطبيعة صديقا محبا لا تفتا كل يوم تعرض له عن لون من الجمال جديد ».

ولد فى كلكتا عام ١٨٦١ من أسرة برهمية ونشأ فى أحضان الزهد وكره المدرسة ونفر من الاستمرار فيها ، وأحب الموسيقى والشعر وعاش فى الهند حتى بلغ سن الواحد والخمسين . وهنالك جدد روحه وافتتح آفاقا جديدة فى حياته عندما ذهب الى باريس وطاف أوربا وأمريكا حيث أمضى سبع سنوات وقال يصف هذه المرحلة فى حياته : « عندما عبرت الانطلانطيق وقضيت على ظهر السفينة غرة العام الجديد أدركت أن مرحلة جديدة فى حياتى قد حلت . وهى مرحلة الرحالة المسافر .. »

وقال : « انه جدد شبابه فى العقد الخـامس وكون رأياً جديدا وأضاء جوهر عقله فى هذا السن وخرج بدعوة جديدة هى « توحيد العالم » جعل قوامها الدعوة الى تجارة عالمية واسعة النطاق فى القلوب والعقول وفى التعاطف والتفاهم . وقال : هناك من يتعلق بالجديد الى حد ينكر على الماضى آثاره ، ويعتقد أن تراث الماضى ليس الا املاساً . وأن أسلافنا لم يتركوا لنا رصيداً أولئك الذين يرفضون أن يصدقوا أن الجيش الذى يزحف الى الأمام يعتمد فى غذائه على المؤخرة » .

ودعا الى مقاومة عزلة الثقافة وقال : « اننا فى زمن تنهار فيه كل الحواجز ولن يبقى من الثقافة الا ما يتفق مع أسس الثقافة العالمية . ودعا إلى ادماج حضارة الشرق فى حضارة الغرب .

وأبرز معالم حضارته التى سيطرت على أدبه هو حب الطبيعة ، ومن أبرز آثاره فى هذا الميدان ديوان « البستانى » وهى ملحمة تصور حبه للطبيعة ، وادراكه لجمال الحياة وفيها يصور نفسه ويرسم عواطفه .

« أيها الشاعر .. لقد أقبل المساء وابيض نورك ، فهل أنت فى خيـالك

وعزلتك تسمع إلى رسالة من عالم غير عالمنا » .

« .. وغرب القمر . وأقبل الظلام . وسمعت خرير المياه ولم أر شيئاً غير هذا . ولكن الريح عصفت بشدة كأنها تريد أن تطفىء ضياء النجوم فى السماء خشية أن يفضح نورها ما يحدث على الأرض . ثم اختفت رفيقتى التى كثيراً ما لعبت فى جنبات صخرى وغابت عن عينى ولكن لم أر إلى أين سارت »

« .. كنت كلما أشرق على يوم جديد من أيام الخريف أخف إلى الحديقة فى اللحظة التى أنهض فيها من سباتى . فيبدو لى كأن عبق الأوراق والحشائش وقد بللها الندى بعطره . يعـــانقنى بعنف شديد . وكان الفجر وقد جللت حواشيه بالذهب النضار أشعة الشمس المتيقظة يطالعنى بوجهه ويحيينى من خلف أوراق النخيل المرتعشة . كانت الطبيعة لى كالطفل يقابلنى بيد مقبوضه ويسألنى كل يوم بثغر باسم : ما الذى تظننى قد جمعت يدى عليه ؟ ولم يكن من المستحيل أن تضم قبضته كل عجيب فى الدنيا وغريب . . . »

« .. ألا فانصت يا فؤادى لأسرار الوجود . فهذه زهرة السوسن ما اصفرت وجناتها إلا لما بهـا من حب وهيام بذلك العمر المنير . وهذه زهرة اللوتس ما ابتسمت بثغرها الحلو وأسفرت عن خدودها الناعمة قبل طلوع إلا لتحيى الشمس منبع الحياة وسر الوجود .. »

وعاش طاغور إلى أن بلغ سن السبعين وهو مشبوب العاطفة مثله فى ذلك مثل جوته وولز . وكان يقول : « إنى لأرقب قلوب العاشقين من الشباب حين تلتقى . وأعين المحبين حين تتبادل النظر وتتطلع إلى الموسيقى تعبر عن مشاعرهم وتخرجهم من صمت رهيب »

وكان يرى أن كشف الحب جريمة لا تغتفر . وكانت صيحته « اكتموا الحب فى صدوركم حتى تذهبوا إلى قبوركم » .

وكان للمرأة فى حياته اثر . أى أثر . وهو الذى يقول « فى عالم الروحانيات يتلقى الرجل الوحى من المرأة . سواء أكان فى حالة وجدان تام أم وجدان غير تام . وذلك الوحى يفتح له منافذ الروح فتتدفق منها العواطف والمشاعر » .

وهو يرى أن المرأة هى موجهة الروح . مستفزة العاطفة . الباعثة على النشاط . وهى التى تؤكد فى نفسه كل شعور وإحساس . ويقول « والمرأة لا تكمل إلا بالحب والعواطف » .

وقد كان أدب طاغور موضع إعجاب الدوائر العالمية وتقديرها . . فأحرز جائزة نوبل وكرمته المجالات الأدبية وعدته رائداً شرقياً كبيراً فى الأدب الإنسانى .

أتاتورك

قالوا تسترد الامبراطورية العثمانية سالف مجدها ، وقال أتاتورك . لا أؤمن بجامعة إسلامية ولكن أؤمن بتركيا .

وبعد أن تخلص من اليونان وألقى بهم فى البحر قال : سيحارب بعضنا بعضاً ، ويأكل فريق منا الفريق الآخر .

وأقام الحكومة الوطنية الإقليمية فى أنقره وبدأ فى صراع حكومة الآستانه .

ولما اشتد ساعده قال : « إن السلطة شىء والخلافة شىء آخر ولا بد من الفصل بينهما ، وبعد أن مضى الزمن ألغى الخلافة والسلطنة جميعا وقال إنها من مخلفات التاريخ التى لا يسوغ لها البقاء .. ولما رأى المناورات تحاك حوله أوقف الدستور وتولى هو جميع السلطات .

ونظر إلى تركيا وقال ليست هذه تركيا التى أريدها . إنى أريد تركيا لا تتعصب لشىء . وخلع الأتراك الفيلق ولبسوا القبعة . ومزق حجاب المرأة . وأبدل الحروف العربية . وقضى على التكايا والدراويش وأصحاب الطرق . .

وعمد إلى تتريك كل شىء حتى التاريخ .

كانت تركيا العثمانية مشدودة إلى الماضى والأوهام والخرافات . . فكان لا بد من ضربة قاصمة لتفصل بين أمس واليوم .

حقا لقد كان مصطفى كال هو الاستجابة الطبيعية لاستبداد عبد الحميد وجبروته وظلمه ، فقد كان رد الفعل لذلك الجو النفسى والسياسى الذى خلفه طاغية العثمانيين فى مدى أربعين عاما .

جاء « أتاتورك » ليفتح أبواب تركيا على مصاريعها جميعا للحضارة الحديثة بل ويحملها عليها حملا ، وبالقوة . وبعد أن كان عبد الحميد يحارب أقل مظاهر هذه الحضارة ، ويغلق كل باب فى سبيل كل كلمة أو آلة أو أداة .

لقد عاش « أتاتورك » فى هذا الجو الرهيب الذى فرضه عبد الحميد على البلاد ، وأمضى سنوات شبابه وهو يرى وطنه مكبلا بالقيود والأصفاد التى فرضها هذا الخليفة المتسلط . وهو يعيش فى وكره « يلدز » بين أكداس من التقارير السرية والخزعبلات والأوهام التى يثيرها له رجال الدين .

ولذلك فقد بدأ منذ أن تبلورت هذه الحقائق فى كيانه يؤلف الجمعيات السرية ويجمع الشباب القوى المتمرد على مهاجمة عبد الحميد . وتصوير طغيانه وكبته للحريات بعبارات تلهب القلوب وتملأ النفوس ثورة وتمرداً .

وكانت جمعيته السرية الأولى ، هى نواة الإنقلاب الضخم والثورة العاتية التى أحدثها بعد ذلك بعشرين عاما ، والتى حولت تركيا تحولا جباراً فأخرجتها فى لحظات من وضع إلى وضع مغاير تمام المغايرة .

ولم يكد « أتاتورك » أن يضع يده على تركيا ويتخلص من جنود اليونان ويلق بهم فى البحر حتى أعاد بناء وطنه من جديد على صورة سريعة وغريبة وجريئة .. فقد كانت تركيا رأس الدول الاسلامية . ومقام الخلافة ، ومركز السيطرة الدينية على الشرق كله . تعيش فى جو مضطرب مزعزع ، فقد أصبحت الخلافة عشا من أعشاش الاستعمار ، ووكرا من أوكار الدول الأوروبية الطامعة فى الاستيلاء على تراث تركيا ، حتى وصفت بأنها دولة الرجل المريض . .

ولكن « أتاتورك » حولها فى سنوات قليلة إلى دولة أوربية تلبس القبعة ، وتكتب من الشمال وتقف فى صف الدولة الحيه .

لم يكن أتاتورك يؤمن بالخيال ولا بالوهم . وإنما كان يقيم سياسته الجديدة على أساس العقل والواقع ، ولذلك سرعان ما أعلن مخالفته للسياسة التى جرت عليها تركيا خلال سنوات وسنوات . والتى كانت سببا فى هزيمتها فى الحرب العالمية . فقد أنكر أتاتورك ما كان يدعو إليه عبدالحميد من دعوة إلى الجامعة الاسلامية .

وأخذ يدعو إلى القومية التركية الخالصة . وقال فى هذا : « إننى لا أؤمن بجامعة إسلامية . بل لا أؤمن بجامعة تركية . ولكنى أنوى أن أسير وفق خطة سياسية ثابتة . وجهتها تأمين حياة الوطن واستقلاله داخل هذه الطبيعة ولن تؤثر على سياستنا الحماسة . وسنستبعد الأحلام والأشباح إلى الأبد .. »

ووقف أتاتورك على السبورة يعلم بنفسه أبناء وطنه اللغه التركيه الجديدة ويكتب من اليســـار الحروف اللاتينيه الجديده . وفى كل مكان كان أتاتورك يطلب سبورة ، وطباشير المساجد ، والقهاوى ، ودور اللهو .

وألغى الحريم ، ونقل المرأة إلى الضوء ، وقذف بها إلى الشارع وحارب الدراويش فألغى التكايا والأوقاف . وأزال قدسيه « يلدز » فأصبحت نادياً من النوادى .

وضرب ضربته الكبرى بالغاء الخلافة . الخلافة التى استولى عليهـــا العثمانيون منذ أربعمائة عام . وأصبحت وقفا عليهم . وظلت القسطنطينية معقلها طوال هذه القرون الأربع ، وكسبت بهـا هيبة الدول فى الغرب . . والسيطرة على الشرق الإسلامى كله ، وطرد أتاتورك السلطان فى الوقت الذى

كان فى نظر الناس هو ظل الله فى الأرض .

ومضى العلماء يدرسون رأى أتاتورك ، واستمرت المناقشات ساعات طوال ولم يجد أتاتورك بداً من أن يحسم الأمر فاقتحم عليهم الغرفه وقال : « اسمعوا ليست السلطنة من المنح التى تمنح بالنقاش على اعتبار أنها من ضرورات العلم إنما السلطنه تؤخذ قوة واقتداراً ، لقد سيطر آل عثمان على الشعب التركى زهاء ستة قرون . أما الآن فها هو شعب يثور فى وجه مغتصبى حقوقه ويسترد منهم حقه المهضوم . هذا أمر مفهوم وليست مسألة ترك السلطات للشعب . . مسألة اليوم فهى مفروغ منها ، وإنما مسألة اليوم هى تقرير هذه السلطات . وهذا التقرير لا شك واقع . وإلا فمن المحتمل قطع بعض الرؤوس .

أيها السادة . إن السلطه يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى . سواء وافقتم أو لم توافقوا فسوف يتم ذلك »

كان ذلك فى سنة ١٩٢٢ ، ومر عامان . وفى ٣ مارس ١٩٢٤ طلب أتاتورك من الخليفة أن يغادر تركيا قبل فجر اليوم التالى وبذلك تخلص من الخلافه نهائياً .

* * *

ونقل أتاتورك العاصمة إلى أنقرة . وجعل من استانبول مدينه أثريه يكفيها ما حفظ لها التاريخ ، من صور النصر والهزيمة . وحرر تركيا من كل قيد كبلها به الماضى البعيد والماضى القريب . حررها من الاحتلال بأن قذف بآخر جندى فى البحر ، وحررها من معاهدة سيفر . وحررها من الجامعة الاسلاميه والامبراطورية العثمانية والخلافة .

وحررها من الرجعية فى شتى صورها ومظاهرها . دفعها فى قوة

وظفر بها . ونقلها من طرف الجناح إلى طرفه الاخر . حتى أصبحت فى عداد دول البلقان لا فى عداد دول الشرق .

حررها من الامتيازات الأجنبية ، وأسس الجمهورية ، ووضع لها دستوراً وحررها من الطربوش والعمامة والزى الشرقى . وقال : العمامة لرجال الدين ، والقبعة للجميع .

ونظر إلى كل الأمور من وجهة النظر التركية وحدها . وقال : « علينا أن نعيش ضمن حدود بلادنا أمة صغيرة متماسكة . ودولة ناجحة موفقة »

وأخذ المدنية الغربية كاملة . نقل شرها وخيرها على السواء . وألغى المظاهر الدينية التى كانت سائدة فى تركيا ، فقد كان يؤمن أن هذه الطقوس بالإضافة إلى الخلافة هى السبب الأول فيما أصاب تركيا من نكبات .

وأنشأ « أتاتورك » الحزب الواحد . وحكم به تركيا وقتاً . ثم عاد فاذن فى إنشاء حزب معارض .

وكون الجيش ، وعمم التعليم . ولم يمض قليل حتى كان ٩٠٪ من سكان تركيا متعلمين

وعلق المعارضين على حبال المشانق .

* * *

ووقف أتاتورك بعد هذه المعركة الطاحنة ليقول : « ثمة اثنان أسمهما : مصطفى كامل ، أحدهما الواقف أمامكم . مصطفى كمال اللحم والدم الذى سيذهب بعد حين ، ولكن هناك مصطفى كمال آخر لا أستطيع أن أسميه « أنا » لأنى لست أنا الذى أشخص هذا الكمال . إنما هو أنتم وجميع الحاضرين هنا الذين يطوفون البلاد من أدناها إلى أقصاها ليبثوا ويدافعوا عن المثل الجديدة . إنى أعيش لهذه الأحلام ، وهى أحلامكم . وعملى فى الحياة أن أحقق هذه الأحلام »

من هذه الحلقات السريعة تبدو صورة أتاتورك على حقيقتها . هذا الرجل العسكري الجبار الذي آمن ببلاده . وآمن بنفسه . وأقدم على إخراج دولة من نطاق الظلم والاستبداد والرجعية إلى حياة جديدة ، أخرجها بقوة وعنف وسرعة . وانتقل بها في سنوات قليلة فحولها من الشرق إلى الغرب . ومن الاستبداد إلى الحرية ، ومن جمود الوراثيات إلى صراحة الحضارة .

هذه الطبيعة الانسانية القوية الضخمه ، كونها عوامل متعددة ، فيها تلك الصورة التي رسمها في شبابه عبد الحميد . وهو يكتم أنفاس تركيا . ويجعلها مبادئه لقناصل الدول ويسد أبوابها دون الحضارة ، ويحول بينها وبين كل جديد . .

وكونها عسكرية صارمة عاش فيها . مضطهدا أوشبيهاً بالمضطهد من زملائه ورؤسائه . فهو عنيد الرأي . لا يعرف المداورة ولا أناقة العبارة . وهو صريح يقول كل شيء ولا يبالي . وينقد في عنف . ويناقش في حرارة . وكان هذا مصدراً من مصادر متاعبه . ولكنه كان في نفس الوقت عاملا فعالا من عوامل نجاحه .

كان أتاتورك يحب الحياة الجديدة ويؤمن بها . وكان في نفسه عقدة نفسية ضخمة ضد الدراويش . فويا ويل الدراويش من أتاتورك . هؤلاء الذين كانوا يعيشون وراء عبد الحميد ووراء خلفاء بني عثمان ولذلك سرعان ما سحقهم وحطم تكاياهم . وسحق سلطانهم الوهمي الذي تسلطوا به على الناس .

وقذف بالمرأة في محيط الحضاره الأوربية وانتزعها من حياة البيت . . لقد سحق عالم الحريم أيضاً . هذا العالم الذي أنشأه الخلفاء في قصورهم وملأوه بالجواري الشركسيات . واليونانيات . وتعلمت المرأة التركية الرقص ولبست الملابس الأوربية واشتغلت في كل عمل .

ولم يكن أتاتورك سعيدا فى حياته الخاصة . تزوج مرتين ولم ينجح فى إحداهما . لم تدع له متاعب الحرب - إلى أن أخرج اليونان - فرصه لحياة طيبة وشغله بعد ذلك : إنشاء الأمة الجديدة . السبورة التى كان يقف عليها ليعلم الأتراك اللغة اللاتينية . جولاته فى أنحاء تركيا لإنشاء الحزب الجديد كل هذا لم يدع له فرصة لحياة بيتية سعيدة . وكان يقول « إنى أحب دائما أن أعيش وحيدا » لقد عاش أتاتورك حياته كلها لفكرته التى استطاع أن يحققها على أوسع نطاق ويصل بها إلى أبعد مدى . ونسى أن كان قد فى سبيل ذلك نفسه وعواطفه وحياته الخاصة .

تولستوى

— ١ —

انقلب الابيقورى إلى زاهد . والأديب إلى مصلح ، ورجل الفن إلى داعيه وكتب اليه ترجنيف يقول : « عد إلى الأدب فهو موهبتك الحقة . اسمع توسل رجل يموت » ولكن تولستوى لم يسمع .

وقد وصف نفسه فى اعترافاته بقوله : « كانت تقوم أحلامى على مشاعر أهمها حبى لتلك المرأة الخيالية التى كنت أحلم بها على وتيرة واحدة والتى كنت أتوقع أن ألقاها فى أى لحظة فى أى مكان ما وثانيها محبتى أن أغدو محبوباً فقد رغبت فى أن يعرفنى كافة الناس وأن يحبونى . ورغبت أن أخرج باسمى فأجد من الناس جميعا ما يدل على اهتمامهم بما أخرج به . وأراهم يحيطون بى فيسمعونى شكرهم إياى على أمر ما . وثالثها أملى فى حظ عظيم غير عادى . وقد بلغ من تسلط هذا الأمل على أن أشرف بى على الجنون . ورابع مشاعرى وهو أهمها . كان إحساس باشمئزازى من نفسى واستشعارى الندم ولكنه كان ممتزجا بالأمل فى السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن »

وقد ربطت الصداقة بينه وبين ترجنيف ، غير أن امرأة فرقت بينهما ؛ وأوقعت الخصومة ، فقد كان يحبها ترجنيف ويبغضها تولستوى . فتقاطعا أكثر من عشرين عاماً من أجلها .

فلما ألمت بتولستوى الأزمة النفسية وتحول عن طبيعته وأهدافه الأولى بدأ جريئاً غاية الجرأة فاتهم الأغنياء بأنهم لصوص . واتهم ذوى المتعة بأنهم أشقياء لأن خطاياهم تعذب أجسامهم ، واتهم العلماء بأنهم مهرجون لأن العالم

ليس فى حاجة إلى علومهم . واتهم الفنانين أنهم مفسدون لأن فنهم قائم على الضرر ، وقال للحكام انهم طغاة لأنهم يسلبون الحريات .

« قلت لنفسى الآن أنطلق . ولسوف أمتحنك بالمرح ، وإذن فلتنعم بمختلف المتع . فكان ذلك باطلا كذلك . وقلت عن الضحك أنه جنون . وعن المرح ماذا يجدى . حاولت أن أنعش نفسى بالخمر ، وحاولت أن أتمسك بالحماقة حينما كانت ترشد قلبى . حتى أستطيع أن أرى ما فائدة بنى الإنسان من العمل تحت السماء كل يوم من أيام حياتهم .

وقمت بعمل كثير . شيدت لى بيوتاً ، وزرعت الكروم . وأنشأت الحدائق والبساتين وغرست فيها الشجر من كل الثمار . وحفرت البرك أروى من مائها الغابة التى تنمو بها الأشجار . واستخدمت الخدم والإماء . وولدت الخدم فى بيتى ، وامتلكت قطعان الغنم والماشية . وجمعت كذلك الذهب والفضة ونوادر الكنوز من مختلف الملوك والأقاليم . وظفرت بالمغنين والمغنيات وبكل ما يلهو به ابن آدم ، كآلات الموسيقى وما إليها . وهكذا كنت عظيما وتوفر لى ما لم يتوفر لكل من سبقنى ببيت المقدس وبقيت حكمتى معى . ولم أحرم عينى من كل ما اشتهتا . ولم أبعد قلبى عن أى لون من ألوان السرور . ثم نظرت إلى كل عمل عملته يداى . وإلى الجهد الذى بذلت ، فرأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس . وليس من ورائه جدوى تحت الشمس » .

ولذلك زهدت الحياة . أجل لقد كرهت كل عمل مارسته تحت الشمس ، لأنى رأيت لا بد تاركه للرجل الذى يخلفنى » .

هكذا أخذ تولستوى عبارة الكتاب المقدس وضاع فيها عاطفته وعواصف روحه حينما ألمت به محنته .

هذه المحنة التى مرت بهذا الفنان فى سن الخمسين فهجر الأدب الخالص إلى الفلسفة والدين والروحية الخالصة ، وتحول من المعانى القريبة الملموسة إلى المعانى البعيدة الغامضة .

كيف تحول « تولستوى » وهو القوى البنية الغنى الذكى الذى يعيش حياة رخية ، وله ضيعة زاهرة ومال وفير ، وله زوج وبنون ؟

ماهو الأمر الخطير الذى غزا هذا القلب فدفعه عن الأدب إلى التصوف وحوله من دنياه المترفه وحياته الابيقوريه ، إلى الفلسفة ، حيث لا يجد فى أفلاطون ولا شوبنهور ولا بسكال ما يقنعه أو يرضيه ، ثم لا يجد أمامه إلا الإنجيل .

بدأت هذه الأزمة عند تولستوى على صورة سؤال معقد : « لماذا أعيش ما السبب فى وجودى . ما الغرض منه ، وما معنى هذه التفرقة بين الخير والشر التى أحس بها فى دخيلة نفسى ؟ .

وتوارد الخاطر عليه فى نومه . ويقظته ، حتى عاد كأنمـــا هو شبح مخيف يطارده . وضاقت الدنيا فى وجهه . وفترت لذة الحياة فى نفسه ، ولم يعد يهتز ـ وهو الشاعر الفنان ـ لجمال الحياة ولا يحس العاطفة ، ومضى كأنما زوجته وأولاده غرباء عنه .

« ماذا دهانى . ما هذه الكآبة التى عرتنى بغير سبب ؛ ما هذا التبرم وما هذا الانزعاج . إنى لم أجد فى الحياة متعة أو أشعر فيها بما يهز منى الحس والعاطفة لقد باتت زوجى غريب عنى . وتخلى عنى أبنائى غير آبهين ، وأمسى العمل إلى نفسى بغيضاً ممجوجا .

وسرعان ما تحول تولستوى خلقاً جديداً ، هذه الانتفاضة الروحيه دفعته إلى حياة أخرى . احتقر المجد والشهرة الكاذبة وبدأ ينظر إليها على أنها من الخدع والأكاذيب « فكرت فى الفن والشعر ؛ ولكنى سرعان ما أدركت أن ذلك خداع . واتضح لى أن الفن زينة للحياة ومما يغرى بها . بيد أن الحـ فقدت جاذبيتها عندى . وإذن فكيف أستطيع أن أجتذب الآخرين . [illegible]

نت فيما مضى لا أحيا حياتى الخاصة ، وإنما أحمل على أمواج حياة أخرى.
ولما كنت أعتقد أن للحياة معنى فان انعكاس الحيـــاة فى الشعر والفن بكل ضروبه ؛ كان يدخل السرور إلى قلبى فكان يسرنى أن أنظر إلى الحياة فى مرآة . ولكنى لما بدأت أبحث عن معنى الحياة وأحسست بالضرورة إلى ان أحيا حياتى الخاصة . أصبحت تلك المرآة بالنسبة لى غير ضرورية . زائدة عن الحاجة » .

وتحول رجل الفن إلى مصلح دينى ..

ثم انتقل مرحلة أخرى فأصبح داعية اشتراكيا .

وكتب له صديقه ترجنيف يقول : « عد إلى الأدب موهبتك الحقيقية . اسمع توسل رجل يموت » ولكنى تولستوى كان قد آمن باتجاهه الجديد وألح على نفسه فى الذهاب إلى أبعد مدى .

ومضى تولستوى يقول : « اللهم هبنى إيماناً قوياً أملأ به قلبى . وأهدى به غيرى » وكان فى فجر شبابه قد هجر الكنيسه والصلاةوالصوم ؛ فبدأ يقارفها مرة أخرى . ويقصد إلى المعابد والأديرة وأخذ يفسر الإنجيل من جديد .

ولم يعجب هذا أسرته . ولم يعجب الدولة ولا الكهان . فصادرا كتابيه « اعترافاتى » و « عقيدتى » فقد طالب بالعودة إلى المسيحية الأولى . وألح على كلمة « الإنجيل » يقف عندها . ويدعو إليها . واتخذ نفس الأساليب التى مضى عليها من قبل لوثر وكلفن فاختلف مع الذين آمنوا بالدين على أنه طقوس تقليديه ، وراثه . فأصبح فى نظر الدولة فوضويا . ثائراً بل مارقا .

وتحول تولستوى مرة أخرى . فاتجه إلى الاشتراكية ودعا إلى المساواة الاجتماعية .

« .. قبل أن نمد أيدينا لمعونة الفقير . ينبغى أن ترفع المعاول ونهوى بها

على هذا الحائل القائم » .

* * *

وبدأ الفارق ضخما بين تولستوى قبل محنته هذه وبعدها .

كان فى شبابه منحرف العقيدة الدينية « . . إن العقيدة الدينية التى لقنتها منذ الصغر اختفت عندى كما اختفت عند غيرى . إذ بدأت فى سن الخامسة عشرة أقرأ كتب الفلسفة » ويرسم تولستوى حياته الأولى فى هذه الصورة « لست أستطيع أن أعود بذاكرتى إلى تلك السنوات دون أن أحس بالفزع والمقت والألم النفسى الشديد . فلقـــد قتلت الرجال فى الحروب وتحديت الكثيرين إلى المبارزة كى أقضى على حياتهم . وقامرت وخسرت . واستغللت ود الفلاحين . وحكمت عليهم بمختلف العقوبات . وعشت عيشة إباحية وخدعت الناس . واقترفت كل الآثام : الكذب والسرقة والزنا بكل ضروبه وشرب الخمر واستخدام العنف أو القتل » .

أين هذا من ذلك الايمان الجديد . حين تحول إلى منفذ لفكرته . فتنازل عن حب الصيد . ولم يأكل اللحم إشفاقا على الحيوان . ولم يعد ينتقل فى قطار أو سيارة . وحول كل ما يدُره قلبه عليه من ربح إلى جمعيات الإحسان . . وأخذ يفلح أرضه بيده وارتدى الثياب الخشنه وأخذ يدعو إلى خطر الهوة بين الطبقات ويهاجم الملكية .

وتحول فى الأدب نفس التحول . فبعد أن كان الفنان المتجرد لفكرته بدأ يرى الأدب شيئاً آخر . يقول فى مذكراته عن حياته الأولى « . . فى غضون ذلك شرعت أكتب مدفوعا بالغرور والطمع والكبر وفعلت فى كتـــاباتى ما فعلت فى حياتى . فلكى أظفر بالشهرة والمال . ومن أجلها كنت أكتب . كان لزاما على أن أخفى الخير وأظهر الشر . وهذا ما فعلت »

ثم أنحى باللائمة والتقريع على زملائه وأدباء عصره حيث قال « معتقدات

هذه الفئة من الناس ـ أقصد زملائى ـ فى الحياة . كانوا يعتقدون أن الحياة فى جملتها تتطور . وإننا نحن رجال الفكر نلعب أكبر دور فى هذا التطور . وأن الفنانين والشعراء من بين رجال الفكر هم أصحاب النفوذ الأكبر . مهمتنا فى الحياة أن يعرف الناس . فان سأل سائل ماذا أعلم وماذا أستطيع أن أعلم . أجابوه أن هذا بناء على نظريتهم ـ أمر ليس من الضرورى أن يعرف .. فالفنان والشاعر يعلم غيره دون أن يشعر بذلك »

ثم فقد روح الطموح التى تملأ روح الأديب ولم يعد للمكان الذى ينتظر أن يصل إليه . أى خطر فى نفسه « فكرت فى الشهرة التى تجلبها لى مؤلفاتى ، حدثت نفسى قائلا : « حسناً . إنك ستصبح ابعد صيتا من جرجول او بوشكين او شكسبير ، او موليير ، او ارفع ذكراً من كتاب العالم طراً . ولكن اى طائل لك من وراء ذلك ؟ »

تولستوى

— ٢ —

حياته العاطفية

أنكر تولستوى ماضيه وتحول عنه فى كل شىء ، وتأثرت علاقاته فى محيط الأسرة بهذا التطور ، فبدأ يتحول عن زوجته وزهد فى علاقته بها . لقد أحب تولستوى سونيا ـ وهذا اسمها ـ وأعجب بخفة روحها ورآها تقبل على القراءة وتملأ البيت بهجة وشبابا وضحكا وصياحا .

كان فى الأربعين من عمره وكانت فى السادسة عشره ، وتزوجا ، وعاشا سعيدين : ومضى هو فى مؤلفاته وكتاباته ومضت هى ترتب القصر وتنظمه وتفرض سلطانها على ضياعه وأملاكه .

وكانت خير عون له على التأليف ، فأخرج للناس آيات من روائع الفن . فظهر اسمه ولمع ، ودوت شهرته فى كل مكان . وكان لزوجه فضل أى فضل . فقد أعانته على التفرغ للدرس ويسرت له أسباب الحياة . ولم يمنع هذا من أنه كان يشعر بالملل وأنه يميل إلى التغيير والتجديد .

وكانت زوجته تفرح وتسر . عندما تعلم أنه بدأ عملا جديداً . لأنها تقدر مواهبه الأدبية تقديراً كبيراً . وكانت إلى ذلك تسهر الليالى وهى تعيد كتابة قصصه . حتى تجعلها صالح للنشر .

غير أن الأمر تحول بعد ذلك تحولا خطـــيراً . إذ ما لبث القصصى أن تحول عن الكتابة إلى القراءة . ومن الأدب إلى الفلسفة . وأكب على دراسة

الأناجيل ثم أخذ فى دراسه اللغة العبرية ليزداد تعمقا فى البحث .

وبلغ تولستوى سن الستين ، يزيده الشيب واللحية الكثيفة جهامه ووقاراً فى الوقت الذى كانت زوجته تتألق وتصل إلى أوج الجمال .

وانتقل تولستوى إلى دور المصلح الاجتماعى فأخذ ينشىء مذهبه الجديد ويحاول أول ما يحاول أن يطبقه على نفسه ، وإذا هو فجأة وبدون مقدمات يطلب من زوجته أن تنزل عن ضياعها الواسعة ، ليعيشا عيشة البساطة .

ولكن زوجته لم تقبل ، فمضى فى تنفيذ فكرته فقسم أملاكه وضياعه على أولاده وزوجته .

ووقف أولاده مع أمهم ضده ، ولم يقف بجواره غير ابنته « ماشا » التى رفضت نصيبها من الثروة وتطوعت للعمل لتكسب رزقها .

وبينما اسم تولستوى يدوى فى أنحاء العالم ، كان يمر بهذه المرحلة القاسية من الصراع بينه وبين زوجته .

ومن ثم بدأت الحرب الخفية بينهما . وأخذت هى تتأهب لمعركة حاسمة ، وكان تلاميذه وأتباعه خصوما لزوجته ، وقد أدى اتساع الخلاف بينهما إلى فتور حبه لها ، وقد ضايقه أن رآها تسيطر على كل شىء فى الوقت الذى كان يدعو فيه الأغنياء إلى النزول عن أموالهم بمحض إرادتهم .

ومرت العلاقة بين الفيلسوف وزوجته بمرحلة غاية فى الحرج ، كان تولستوى قد بلغ سن الثمانين وقد أصابه شىء من خيبة الأمل والفشل فى تطبيق آرائه . إذ رأى نفسه عاجزاً عن تطبيقها على نفسه ، ورأى زوجته تقف فى وجهه وتقبض بيدها على كل شىء .

وصمم على الفرار ، وهرب فعلا .

ولكن زوجته لم تلبث أن لحقت به . وكان الرجل الكهل قد أضناه السفر فأصابته الحمى ، وظل أسيرها أياما وهو لا يسمح لزوجته أن تراه . حتى إذا

أصبح فى دور النزع الأخير سمح لها ، فدخلت عليه وهى تبكى ، وقبلت يده وهى تقول : غافر لى فقد أخطأت .

ولكن الرجل كان قد أسلم الروح .

* * *

غير ان لهذه القصة جانباً آخر . . فقد كان الرجل إلى سن متأخرة قوى الجسم ملىء بالحيوية . يلح عليه جسده ، فلم يكن يستطيع كثيراً أن يكبح جماح شهواته ، رغم أنه زوج وله أولاد .

وقد صور هذا المعنى فى قصته موت إيفـــان التيش « . . ولذلك لم يجد بوزدنشيف ملاذا له له من إفراطه فى إطفـــاء شهوته إلا الزواج ، ولكنه لا يصيب فى الزواج ما كان يتوق إليه من راحة ، ذلك لأنه فى الزواج بعض وطره أنى شاء فهو لا يخاف شيئا ، فما كان يخاف منه ، وهو أغرب من وساوس المرض أو مجازفات اللقاء ، وينتهى به الأمر إلى ان يباشر زوجه طلبا للمباشرة فى ذاتها كما تقضى به قوانين الطبيعة ، وبذلك تصبح الزوجة او يصبح الزواج أداة للعملية الحيوانيـــة فحسب ، ثم يحول الأمر إلى ذلك الزهد ، أو ذلك السأم الذى ينشأ عن الامتداد والإسراف وتفسد الحياة الزوجية بهذا السأم وتدب الشكوك والوساوس وتسود الدنيا » .

وكتب فى هذا المعنى مرة اخرى « . . إن من أهم أسباب عدم السعادة فى الزواج يرد إلى الشباب يخاطون بما يلق فى نفوسهم إنه شىء يجلب السعادة ، ولكن ما بين الزواج والسعادة فهو شقاء أبداً وهو ثمن الاستجابة للرغبه الجنسية ، وانا لنقاسى فيه بقدر ما وعدنا به أنفسنا من وعود » .

كان هذا الصراع بين حيوانيته وروحانيته قويا فى نفسه ، بعد أن تزوج وقد ألمح فى اكثر من مرة ان الزواج مما يعوق المرأ عن ان يبلغ اسمى ما يتوق إليه من كمال فى كل نواحى الحياة .

هذا فضلا عن أن افكاره ودعوته الجديدة ، كانت تحول بينه وبين نزعاته الجنسية نحو زوجته ، بعد أن اتسعت الشقة بينهما فى الرأى .

* * *

كان تولستوى اسعد زوج ، كان يحب فتاته ويعيش معهـــا على اسلوب العشاق لا الأزواج ، وكانت هى معجبة به كقصصى طبقت شهرته الآفاق ، ولـكنه حين تحول مجرى حياته ، واخذ يدعو إلى فكرته واراد ان يطبقها على نفسه وبيته ، قاومت الزوجة وخاصمت ودبرت المكائد وعقدت المؤامرات

هكذا المرأة تدفعها غريزتها إلى ان تحتفظ بما فى يدها ، ولا تفرط فيه وتذود عنه . وهى لذلك لا تندفع كثيراً وراء الآراء الجديدة . وهى ايضا لا تؤمن بالانقلاب النفسى إذا ما اتصل بأمور حياتها وحياة ابنائها ومواردها .

ولـكن تولستوى احس اخيرا بفشله فى بث رأيه ، هذا ما دعاه الى ان يهيم على وجهه حتى مات فى العراء وحيدا شريداً .

تراجم من الغرب

سافونارولا
لوثر
نابليون

سافو نارولا

٢٣ مايو ١٤٩٨

.. وانتهت حياة « سافونارولا[١] » كما انتهت حياة عدد كبير من المصلحين والدعاة والرسل ، قتل وحرقت جثته وألقيت بقاياها فى نهر الآرنو . ثم لم تلبث أن تمر السنين حتى يتبين الناس صدق سافونارولا ويضعوه فى عداد القديسين والشهداء ، ويتداولوا آثاره وخطبه كأنما هى بقايا من الكتب المقدسة جاءت بعد عصر النبوات . وقوى مركز أنصاره وسيطروا على مقدمات الأمور فى فلورنسا من جديد . وجاء مارتن لوثر فاهتدى به ، وسار فى نفس الطريق واستطاع أن يقطع طريقا مهدها له من قبل هذا الراهب الذى رفع إلى درجة القديسين .

* * *

لم يكن « سافونارولا » إلا راهباً كبير القلب ، قوى الايمان ، بعيد الهمة استطاع أن يؤمن بنفسه وبدعوة الناس إلى الحق الذى اعتقده . فقد رأى الفساد يستشرى فى فلورنسا فأراد أن يظهر النفوس من هذه الآلام والأغلال التى أحاطت بها ، فلما نجح فى دعوته ، قصد إلى هدف أكبر فدعا إلى إصلاح الكنيسة وحمل على رجال الدين الذين كانوا قد اندفعوا وراء المغريات والمطامع ونسوا رسالتهم الحقة ، غير أن الأمر بدأ أشدخطراً عندما تناولت حملته هذه البابا الطاغية اسكندر بورجيا . فقد تحول الأمر فى غير مصلحة

---

(١) ولد سافونارولا عام ١٤٥٢ .

الرجل الذى أحبه الشعب الفلورنسى ، وزاد فى الوصول إلى النتيجة المحتومة إن سافونارولا لم يكن يؤمن بالمداورات السياسية وكان يجنح إلى الصراحة دون أن يبالى ما تأتى به من نتائج .

أمضى سافونا رولا ٢٤ عاما منذ بدأ حياته العملية إلى أن قضى ، وهو يدعو قويا مؤمنا ، مدفوعا إلى رسالته بأعصاب غاية فى الحماسة والجرأة والصلابة . وامتحن خلال حياته بألوان من المغريات والمزعجات فما استطاعت أن ترده او تحوله ، عن طريقه المرسوم .

ولقد كان حقا له وقد أخلص لفكرته أن ينتصر وأن يصل إلى الذروة . كان سافوناورولا يؤمن بقوة موحيه ، ويحس كأنما تتراءى له الأحداث الغيبية وتجرى على لسانه الوقائع التى تضمرها الأيام .

وقد كان من أولئك الضامرين الناحلين الذى تعطى ملامح وجوههم صورة العزم المصمم والذى تبدو من وراء تقاطيعه الصلبة الصامتة قوة الإرادة والثقة بالنفس .. وكانت طبيعته الصوفيـــة الزاهدة ، وشعوره بالسخط والحزن يعطيان له صورة الصرامة .. وكانت الأحداث المتتابعة والمؤامرات السياسية والدماء التى كانت تراق نتيجة للصراع بين الحكام المستبدين ، كلها قد أشعلت فى نفس سافونا رولا النار ، وأحس بأن عليه واجبا يقتضيه أن ينزل إلى الميدان .

وبدأ يتحدث إلى الناس ، وكان حديثه من نوع جديد .

ولم يلبث أن اجتذب الجماهير .. ودعا إلى إعلان الندم ، والإنابة إلى الله والتحرر من الآثام !

وظل سافوناورولا يتنقل فى البلاد داعيا ، رافعا عقيرته . وقد أكسبه إيمانه بفكرته قوة فبدأ صوته رهيبا وعباراته قاسية .

* * *

وحمل سافونارولا على الطغاة وقال : « إن الطغاة قوم لا يمكن إصلاحهم لأنهم متكبرون ، ولأنهم يحبون النفاق والملق ؛ ولأنهم لا يردون الأموال التى اغتصبوها إلى أصحابها ؛ وهم يتركون أمور الدوله فى يد وزرائهم . ويشتدون على الفقراء ويتركون الأغنياء ويطلبون أن يعمل لهم الفقراء والفلاحون دون مقابل . ويشترون أصوات الناخبين ، ويفرضون الضرائب التى تثقل كاهل الشعب » .

وكان يوجه هذا إلى حاكم فلورنسا « لورنتزو » وبذلك قطع ما بينه وبين الطاغية الحاكم ؛ وقد حاول الحاكم إغراءه واسترضاءه أو كسب صداقته فاودع الدير كمية من الذهب ، ولكن الراهب العنيد رفض الذهب ووزعه على الفقراء . وقال إن الرهبان يجب أن لا يكون عندهم ذهب !

ولم يلبث سافونارولا بعد أن اختير رئيسا لدير سان ماركو أن أصبح معقد آمال الشعب كله . ومضى يحارب فى قوة الفساد الذى يغمر فلورنسا فى قوة ، ويهاجم الميسر والربا والخمر .

وكان يتخذ فى الخطابة الأسلوب العاطفى الصرف ، الذى يتصل بالقلب ويصل إلى أعماق النفس .

وزاد فى قوة سافونا رولا ، أن دعاه « لورنتزو » وهو فى النزع ليستغفر له . فلم يقبل منه إلا أن يتنازل عن الأموال التى اغتصبها لترد إلى أصحابها ، وغضب لورنتزو وتركه سافونارولا دون أن يمنحه الغفران .

وازداد اسم الراهب الثائر لمعانا وضياءاً ، واستقبل فى رحلاته الى البندقية وبيزا وبولونيا على صورة لم تسبق لداعية سواه . واختير على أثر ذلك رئيسا لدير ســان ماركو . وكان هذا ازدياداً لسلطانه ومكانته . وسرعان ما قام بالإصلاحات التى كان يرجو أن يحققها من زمن فباع أغلب ممتلكات الدير

تنفيذاً لقاعدته التى ترى أن الرهبان ليسوا فى حاجة إلى ممتلكات . وبدأ يوجه الرهبان إلى نظام فيه تقشف وخشونة .

وواصل سافونارولا حملته على الأمراء .

« إنهم أدنياء سفلة يعيشون فى قصورهم وينعمون بملاذهم ويمصون دماء الشعب . وبلاطهم بؤرة للوحوش من كل نوع . الذين يهرعون إلى قصور الأمراء لكى يشبعوا لذاتهم الوضيعة ، فهناك الفلاسفة والشعراء المنافقون ، يمدحونهم ويتغنون بمجدهم الكاذب وبثرواتهم الزائلة ويرجعون بأنسابهم إلى الآلهة » .

وحمل على رجال الدين :

« هؤلاء الذين ينادون بحياة الطهر والورع ، مع احتفاظهم بالعاهرات من النساء ويحضون الغير على الصوم . وهم يتناولون أشهى الأطعمة ، وقد أصبحوا يعظون لإدخال السرور على نفوس الإمراء ، ولكى ينالوا منهم العطاء والمجد لا لكى يبثوا تعاليم الأخلاق والدين بين الشعب . وهم قد حطموا الكنيسة الصحيحة وشيدوا بدلها كنيسة باطلة ملوثة . وأخضعوا الكنيسة للتخمين واحتفظوا بالمظاهر والطقوس وحدها » .

وانتقل سافونارولا إلى ميدان السياسة ، وقال : « إن حكم الطغاة فى إيطاليا يؤدى دائماً أسوأ النتائج ، وأن أفضل نظام يلائمنا هو الحكومة الوطنية الشعبية . وويل لفلورنسا إذا اختارت طاغية يستبد بالسلطة فيها » .

ومضى يدعو إلى الإصلاح ، كان يريد أن ينشأ المجتمع النموذجى فى فلورنسا ليطبقه بعد فى إيطاليا كلها ، على أن يقوم ذلك على أساس جديد « لا يكسب أى شخص أية فائدة بغير إراد الشعب كله . الذى له الحق وحده فى اختيار الحكام وإصدار القوانين » .

وعلى ضوء دعوته نظر الدستور الجديد وأنشأ مجلس السينوريا ، وبذلك سيطر سافونارولا على الشعب والحكومة .

وهنا بدأ الراهب الثائر يواجه أضخم معارضة خصومه القدامى ومن بينهم الرجعيين والعبيد . ولكنه مضى فى طريقه لا يبالى لرسى قواعد النهضة الجديدة « يا أهل فلورنسا ، إذا أردتم أن تكونوا أحراراً فلتحبوا الله أولا ، ثم ليحب بعضكم بعضا ، ولتحبوا المصلحة العامة ، وإذا تم لكم هذا الحب ، فستكون لكم الحرية الصحيحة . والحب يؤدى إلى الاتحاد . . وحيث يكون الاتحاد يكون الله فهناك كل قوة وكل فضيلة » .

وتحول شعب فلورنسا ، فاصبح شعبامثالياً ، تحول الناس من اللهو واللذات إلى الجد والعمل ، ورفع الفقراء رؤوسهم .

وهنا بدأ المديتشى استرجاع سلطــانهم فى فلورنسا ، وتكتل أعداء سافونارولا .. هؤلاء المعزولون عن الحكم . ومعهم الذين ضايقهم الجو الجديد بما فيه من كرامة وسلامة واستقامة ، فأثاروا البابا على سافونارولا .

غير أن الراهب الثائر لم يكن لبقاً ولم يستطع أن يكسب البابا إلى صفه ، فزاد من اوهام اسكندر بورجيا وهو المعروف بالظلم والطغيــان ، وصدق ما أوعزوا إليه به من أنه يطمع فى أن يضع يده على السلطة المسيحية كلهـا !

ودعاه البابا إلى مقابلته ، فرفض المقابلة ، فقد كان يعرف أنه إنمـا يريد اغتياله ، ومضى سافونارولا يهاجم رجال الدين ، ولم تفلح حيل البـابا الذى عرض عليه قبعة الكردينالية فرفضها .

وبلغ الحنق بالبابا أن عزل سافونارولا وألغى منصبه الدنى .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أن خصومه ذهبوا معه إلى أبعد مدى فقد دعوه إلى تجربة النار ، وتقدم خصمه فرنتسشكودى بوليــا يطلب إليه أن يدخلا النار سوياً . وستأكل النار من برى الله فسادتعاليمه ، ورفض سافونارولا ولكن أنصاره تحمسوا للتجربة ، وكانت هذه التجربة نهاية الراهب فقد فشل

فيها تحت تأثير عوامل خارجة عن إرادته .

وهنا سقط سافونارولا فى نظر أنصاره ، وفى نظر الناس جميعاً .

وحمل إلى السجن ، وبدأت محاكمته وتعذيبه .

وصمد « سافونارولا » فى المحاكمة ، فقد كان ما زال قوى الثقة بالنفس وحكم عليه بالإعدام شنقاً ثم الحرق .. فى ميدان السيئوريا .

ولم يكن هناك من يدافع عن الراهب المؤمن .

ولكن تعاليم سافونارولا .. استيقظت بعد ذلك وعاشت . وصحح التاريخ حكمه على الرجل الذى فشل لأنه خائن .. ووضع امام اسمه كلمة « قديس »

لوثر

أعدم سافونارولا فى سنة ١٢٣٧ ، وبدأ لوثر دعوته سنة ١٥١٧ ، وكان بينهما ثلاثمائة سنة . ولكن لوثر كان تلميذ سافونارولا . وقد نجح فيما اخفق فيه استاذه . وحمل اسم الدعوة الإصلاحية التى فتحت امام اوربا بابَ النهضة « الريسانس » . ولكن هل وجد « لوثر » الطريق امامه مفروشا بالورد . . ؟

لا .. لقد اباح المجمع الكنسى دمه ، فاختفى سنوات ، حتى خف الطلب عنـــه . وصنع المذهب الجديد جوا من الصراع ، وانتهى هذا الصراع الى الحرب بين دول اوربا .

وامتدت هذه الحرب ثلاثة عشر عاما . ولكنها انتهت بانتصار المذهب الجديد . ولم يمت لوثر الا بعد ان توطدت دعائم فكرته .

* * *

كانت صكوك « الغفران » هى مفتاح كفاح لوثر ، وهى النقطة التى بدأ منها الثورة . فقد زار مدينة وتنبرج فلقى هناك راهبا يدعى « وكلف » يبيع صكوك الغفران لحساب البابا ليو العاشر الذى كان فى حاجة شديدة الى المال لتشييد كنيسة القديس بطرس فى روما .

ووقف لوثر يعارضه ـ يعارض هذا الراهب . ونشر فى الناس رسالة طويلة بين فيها خطأ الكنيسة وطلب اليه المناقشة فاختفى . واحس البابا بمدى الخطر الجديد الذى يكمن وراء دعوة لوثر فارسل اليه بعض الرهبان ليناقشوه فى سلطة البابا وعصمته من الخطأ . ومدى حقه فى اعفاء المذنب من طائلة العقـــاب .

وكانت الكنيسة اذ ذاك قد بلغت حداً مكن الرهبان من التسلط على الناس وادخل البابوات فى روع الجماهير أنهم اصحاب السيادة الفعلية على جم أمراء البلاد .

وقد افسد هذا عقائد الناس . ودفعهم الى الاهتمام بالطقوس الدينية والحج الى المدافن وتلاوة الأدعية التى لا يفهمونها وفرض رجال الدين سلطانهم على الناس وعاشوا ينعمون بحياة البذخ والفساد والترف .

وكان لوثر قد عزف فى شبابه الباكر عن دراسة القانون واتجه الى قراءة التوراة ومؤلفات القديس أوغسطين ومضى فى دراسة اللاهوت ثم عين استاذا للعلوم الدينية بجامعة وتنبرج . فلما زار روما ورأى الفساد المنتشر فيها بين رجال الدين صح منه العزم على ان يجهر بدعوته . فبدأ بمهاجمة صكوك الغفران ثم وقف فى وجه البابا الذى لم يجد بداً من ان يصدر امرا بحرمانه من حقه الكنسى .

ولكن لوثر اخذ هذا الأمر وحرقه فى السوق العامه على مرأى من جميع الناس . واستفحلت الثورة التى اعلنها وانضم اليه الأمراء الذين احسوا ان انتصار دعوة لوثر سيمكنهم من التخلص من جور الكنيسة وصرائبها . . وسيحررهم ويرد لهم املاك الكنيسة الواسعة .

واستطاع لوثر بقدرته على الخطابة ، وبلاغته ، وإيمانه بدعوته من إيقاظ شعور القومية فى الألمانيين مما بدأ خطيراً فى نظر الامبراطور شارل الخامس الذى خشى أن يعارض هذا الشعور .

ورفض لوثر أن يقبل رأى مجمع ورمس الذى طلب إليه ان يرجع عن رأيه بلا مناقشة . وطلب أن يتحدث ويناقش . ولكن عجز رجال المجمع عن الوقوف فى وجهه كان عاملا جديداً من عوامل النصر .. واعلن لوثر ان صكوك امرآ الغفران و البابوية كلهـا بدعة مستحدثة لم تكن معروفة . فأصدر المجمع يقضى باباحة دمه باعتباره مجدفاً .

واختفى لوثر فى احدى قلاع سكسونيا وأمضى ، سنوات يترجم التوراة إلى الألمانية .

ثم خرج لوثر حيث انضم اليه بعض الفرسان فقاد الثورة ضد الكنيسة ، واشتد طعنه عليها . ودعا الفرسان والأمراء إلى القيام بالإصلاح ، وطالب أن يكون رجال الدين خاضعين للسلطة المدنية .

غير أن الثورة حاولت أن تنحرف عن طريقها حين ثار الفلاحين الذين أرادوا أن يخرجوا على النظم الاجتماعية تخلصاً من مظالم الأمراء وأصحاب الأملاك .

ونهب الفرسان الكنائس والأديرة واستولوا على أملاك الكنيسة .

وبرز مذهب « البروتستانت » وازداد الصراع بينه وبين الكاثوليكيه ، وانضم الامبراطور إلى الحزب القديم . ودخلت فلورنســا الحرب فى صف اللوثيرين فهزم الامبراطور واضطر أن يقبل الصلح ، الذى أعطى الأمراء حق تقرير المذهب الذى يتبع فى أماراتهم وأن ترد للكنيسة روماكل الأملاك .

وفى خلال ثلاثة عشر عاما لم يستطع الامبراطور ان يفعل شيئا ، فقد كان مشغولا بالحرب مع فرنسا وتركيا . وكان يخشى أن يؤدى الأصلاح الدينى إلى انقلاب سياسى ،

وبذلك استطاع « لوثر » أن يحقق دعوة سافونارولا . وان يسيطر مذهبه على اوروبا كلها بل العالم المسيحى .

* * *

كان لوثر غاية فى الجرأة فى كل خطواته التى اتخذها . فلم يكن من الطبيعى ن يقف إنسان فى وجه البابا ويحرق خطابه ويناصبه العداء ، ويحمل على

الكنيسة ورجالها بهذه القوة ، إلا إذا كان قوى الايمان . صلب الإرادة ، واسع الإدراك .

وهنا يبدو امتياز لوثر عن سافونارولا ، فقد استعان بالأمراء ضد الكنيسة . فكان هذا منه منتهى اللباقة والحنكة السياسية وهو ما لم يفعله استاذه ورائده . وتعد ترجمته للانجيل عملا غاية في الخطر حتى وصف بأنه جرأة لم يقدم عليها أحد من قبل . فقد كانت هذه هذه هى المرة الأولى التى يترجم فيها الإنجيل من اللغة اللاتينية .

نابليون

حياته كأى صورة من صور الحياة التى تجرى عليها سنن الكون ، ترق وترقى حتى تصل إلى ذروة بقوة ، ثم يخترمها النقص وتتعاورها الزلازل ، وتتصل بها عوامل النقص ، حتى تنطفىء الشعلة ويذبل نورها ، وهى لحظة واحدة يتحول فيها الإنسان العبقرى البطل من القوة الخارقةالتى ترهب الناس وتهز العروش ، إلى أسير ذليل ، وإلى مهزوم محمول بالباخرة لا حول له ولا قوة .. ما أشبه حياة نابليون بالقصة الخيالية ، أو الاسطورة الممتعة . ذلك الضابط الكورسيكى القصير القمىء ، الذى يتاح له فرصة يضرب الثائرين ويحصدهم بالمدافع فى قلب باريس فى عهد حكومة باراس ، فيلمع أسمه لمعاناً خاطفاً ويعين قائداً للحرس الوطنى .

ثم يتابع مظاهر الشهرة والظهور ، وتهىء له الظروف الفرصة بعدالفرصة فيذهب إلى ايطاليا فيحتلها ويعود منها مرفوع الرأس . ويقصد إلى مصرفيهز ويزعجها ، ثم يعودفيصبح القنصل الأول فى باريس ، ثم لا يلبث أن يعلن نفسه امبراطوراً ، ويمضى فيكتسح بروسيا والنمسا .. ويبيتفاذا هو سيد أوربا كلها . واذا هو الاسم الرهيب المخوف الذى يزعج الملوك والقادة . ثم يصل به الحظ الى أرفع درجات القوة والمجد والسلطان ، يثل العروش . ويلغى من القاموس كلمة المستحيل .

فاذا تم له الأمر . بدأ النقص يخترمه . وأخذ المجد ينحسر عنه . فاذا بدول أوربا كلها تحاصره وتتآمر عليه . ثم تأسرة وتنفيه الى جزيرة البا . فيظل هنـــاك يرقب الحوادث . عاما كاملا . ثم اذا به يزحف الى باريس فتستقبله استقبال الفاتحين . ويهرب الملك الجالس على العرش . ويتوهج نجمه

مرة أخرى ولكنه توهج النهاية ، فاذا به ينهزم فى واترلو ، بعد أن تتكاتف عليه عوامل النجم الذى يأخذ طريقه إلى الهاوية . فاذا به أسير بريطانيا فى سنت هيلانه حتى ينقضى الأجل ، فيعاد إلى باريس التى أحبها ، فى محفته ، ليثوى فى التوليدى .

* * *

عاش نابليون حياة يتمثل فيها الصراع بين المجد والحب والسلطان ، وبين الهزيمه والنفى والموت . يتمثل فيها نابليون باقعة الحرب ، وداهية الفتح ، نابغة السلم ، وقد أشرق مجده ، وعلا اسمه ؛ حتى طغى على كل اسم ومجد ، ثم إذا به ، وقد انجابت عنه أضواء المجد وانحسرت ملامح النصر .

كان نابليون ابن الثورة ، وثمرتها ، ظهر كما يظهر العباقرة والأفذاذ ؛ يكونون آية زمانهم التى لا تتكرر ولا يحسب لها حساب .

جاء نابليون فى إبانه وفى ميعاده ؛ وفرنسا فى أشد الحاجة اليه ؛ فصنع بها فى سنوات قليلة ما يعجز عنه غيره فى قرن من الزمان .

وفى خلال هذه الفترة منذ أن لمع اسمه إلى أن نفى إلى جزيرة سنت هيلانه ١٨٧٦ — ١٨١٩ أى فى خلال ثلاث وثلاثين سنة كان نابليون شغل فلورنسا الشاغل ، وموضع نظر التاريخ وتقديره .

* * *

كانت وقائع حياته خلال هذه الفترة أشبه بشريط سينمائى فهو الضابط الكورسيكى الذى بدأ شهرته السياسية باخراج الإنجليز من ثغرطولون والذى ما زال أعدائه فى خلال هذه السنون فى ستين موقعة ؛ فى فرنسا وإيطاليا والنمسا والنمسا وألمانيا وروسيا وبروسيا وبلجيكا وفلسطين ومصر .

وكون حكومة القنصلية عام ١٧٩٩ وكان هو القنصل الأول . ونودى به

امبراطوراً عام ١٨٠٤ وعمره ٣٤ سنه . وبعد أن كان قد استولى على أغلب ممالك أوربا وانتزع من البابا سلطته واستولى على أملاك الكنائس فى فرنسا وبطش بخصومه وفتك بهم فتكا .

وجيشت النمسا ضده أربعة جيوش جرارة فى خلال ستة شهور فهزمها شر هزيمة وعبر جبال الإلب ؛ بعد أن حذره منها قواده ، وامتنعوا ، فحمل العلم بيده وتقدم نحو الجسر وقال : أيها الجنود اتبعوا قائدكم . فساروا خلفه ونار الأعداء تحصدهم وهم يتساقطون عن يمين وشمال حتى عبر ممر سنت برنارد وظهر خلف العدو فاجبره على النزال وكسره فى موقعة مارنجو عام ١٨٠٠

واتسع ملكه بعد انتصاره فى اوسترلز إلى حدود لم يستطع أن يصل إليها شارلمان فى أوج مجده .

واستطاع أن يحصل بالصلح على كسب آخر فقد تنازلت به النمسا لفرنسا عن شاطىء نهر الرين الغربى وعقد صلحا مع إنجلترا هو صلح « اميان » .

وفى خلال عشر سنوات السلم استطاع نابليون ان يركز القواعد الداخلية وأن يعنى بالنظام الداخلى . وكان فى خلال ذلك يدير دفة امبراطوريته العظيمة لا يبت فى مسألة حربية أو بحرية أو سياسية أو إدارية إلا برأيه وأمره .

واستطاع نابليون أن يكسب حب شعبه ويظفر باعجابه ، وقد تملق الشعب بالعودة إلى الدين وإعادة بناء الكنائس التى هدمها الثوار . وأعلن رسمية الكاثوليكية بعد أن اتفق مع البابا ، وبذلك نال رضى عنـــه الشعب فتوجه امبراطوراً حين أعلن نفسه فى مايو عام ١٨٠٤ .

وأنشأ الأسطول الفرنسى ولم يكن لفرنسا من قبل أسطولا يذكر ، وأدخل إصلاحات ضخمة ، فقد عبد الطرق وشيد الكنائس وشق الأنهار فى باريس ، وروما وليون والهافر ونيس والبندقية وأنشأ حضارة كاملة من القوانين

والمدارس والمعاهد والتماثيل وأحواض الفن وشيد قوس النصر الشهير رمزاً لفرنسا ، وعامود فاندوم ؛ والبورصة وكنيسة المادليه أجمل كنائس باريس ، وكان يفخر بالقانون المدنى وأسس أول بنك فى فرنسا وأبطل الرق ولم يعقد قروضاً .

* * *

وعرف نابليون بالدهاء والمكر والخداع ، كما عرف بأنه لا معقب لما يراه ، ولم يكن يجرؤ أحد على مراجعته أو مجادلته أو معارضته . وفى الوقت الذى كان اسمه يعمل كالسحر فى قلوب أنصاره ، كان يفزع قلوب خصومه ويؤرق نومهم ، وكان محبوبا من جنوده إلى أبعد حد ؛ فقد كان يملأ قلوبهم بالروح المعنوية ، ويتفقدهم بنفسه ، ويشرف على أمورهم ، وقد علمهم الإقدام والتضحية . وغرس فى نفوسهم القدرة على القتال والاستماتة فى الحرب .

يقول لهم : « ها أنذا على رأسكم أسير بكم إلى المواطن التى تكسبكم الفخر والغنيمة وأقصد بكم بلاد الأغنياء » .

أوعظم وقائعه مارنجو ، واسترلتز .

ولكن نابليون كان إنساناً له أخطائه ، فقد طمع حين اتسع ملكه فى أن يخلد المجد فى عقبه وأهله ، فولى اخوته وأصهاره ملوكا على ألمانيا وإيطاليا وهولندا . ودفعه ذلك إلى أن يعقب أولاداً يحفظون هذا الملك . ودفعه ذلك الى طلاق جوزفين وزواج مارى لويز التى أنجبت النسر الصغير ملك روما وأرهق فرنسا بالتجنيد من أبنائها وقتلهم فى الحروب .

وبعد أن اجتاحت جيوشه أوربا ، ووصلت الى قلب روسيا ، واحتلت موسكو ، ارتدت عنها إلى خائرة القوى ، تمر وسط بلاد معادية وتكافح

المطر والثلج والبرد القارس ، الى ان عادت الى فرنسا بعد انخسرت ٣٠٠ الف جندى . وكانت هزيمته فى روسيا ، مصدراً لتألب القيصر بالاشتراك مع انجلترا عليه مما أدى الى نزوله عن العرش و نفيه الى جزيرة البا (ابريل ١٨١٤)

ولكن لم تكن تلك نهاية نابليون ، فان مجده لمع مرة أخرى بعد أن توترت الحالة فى فرنسا ، وعادت فرنسا الى مساوىء العهد الماضى ، وأعيد للأشراف امتيازاتهم ..

فقد أمضى نابليون عاماً فى جزيرة البا ، حتى اذا جاء ٢٧ فبراير عام ١٨١٥ غادرها فى الف من رجاله فركبوا البحر ، ووجهتهم فرنسا ، وعندما وطأ قدمه خليج دون جوان أرسل منشوره الأول الى فرنسا .

ايها الفرنسيون : « ان ما يقرر بلا رضاكم لا يعد شرعا ، أيها الجنود هذا رئيسكم وامبراطوركم . فاجتمعوا تحت لوائه فان وجوده من وجودكم ، وحقوقه ليست الا من مصلحتكم وشرفكم ومجدكم . ان النصر لكم سيأتى سريعا والنسر الامبراطورى سيطير من قبة الى قبة حتى يحط على أبراج نوتردام فى باريس » .

وحيثما حل نابليون أثار الفرح واستقبل بالتاييد ، والتف الشعب حوله وسلمت الجيوش اليه نفسها وحمل الى قصر التويلرى .. حيث ألف حكومة المائة يوم »

وحيث أسرعت واترلو بالهزيمه ، كانت جزيرة سانت هيلانة تستقبله ليعيش هناك ست سنوات ، ثم يعود بعد أن يسلم الروح فى ٢ مايو عام ١٨٢١ الى فرنسا حيث يدفن فى الأنفاليد .

* * *

وبنفس العنف الذى كان به يحارب ، كان كذلك به يحب ، يعشق حتى يتدله ثم ينصرف حتى ينسى . تميز بالعاطفة الحادة والنفس المتقدة . حيث التطرف فى كل شىء . كما عرف بضعفه أمام النساء .

وكانت عاطفته عارمة قوية . حينما ذهب . كان يطارده الحب ويأخذ بلبه وله مع المرأة قصص تدل على مدى رغبته فى أن يستكمل شخصيته من هذه الناحية . فهو بالرغم من بطولته فى الحرب ولمعان اسمه ، كان يحس بأن هناك ميداناً آخر ما زال فى حاجة إلى أن ينتصر فيه .

وكان حبه لجوزفين من أروع صور الحب ؛ ورسائله إليها تعد من ذخائر الأدب الفرنسى ، ليس لأن نابليون هو الذى كتبها . ولكن لروعة أسلوبها وعمق العواطف التى بثها خلالها .

وإن يكن نابليون قد أتيح له أن ينتصر فى الحرب ، فانه لم يكن سعيداً فى الحب ولم يكن من الطبيعى أن يوفق للجمع بين المجد والحب .

* * *

وفى الحرب عرف بالحركة السريعة والحماسة والضربات السريعة والتطويق والانقضاض الخاطف والانسحاب السريع .

ولكنه مع ذلك فشل فى كثير من مشاريعه وفى مقدمتها مشروع الشرق وارتداده عن حصن عكا وموقعة الأمم عند ليبزج وأخذ عليه التاريخ أنه وهو ابن الثورة لم يستطع أن يظل مخلصاً لها ؛ وإنما غلبت عليه مطامعه ؛ وأثر كأسلافه أن يشق طريقاً إلى غاياته ليكون شبيها بقيصر والاسكندر . وقد كان يحبهما ويترسم خطاهما .

وقد بلغت به سطوته أن رفض الذهاب إلى روما للتتويج . وانتقل البابا لأول مرة إلى كنيسة نوتردام لتتويجه . وليس من شك أن نابليون قد فتنه

ما أحرزه من نصر فاندفع مهوراً وقد تسلطت عليه عاطفـــة حادة أفقدته توازنه . وقد وصف هذا المعنى أحد المؤرخين حين قال : « لقد ملأ النصر رأسه كما يملأ الهتاف رأس الممثل على خشبه المسرح فلم يبق فيه ذرة من العقل » وكان يؤمن بالميكافيليه التى تخون العهد فى سبيل الوصول إلى غاياته ، ولذلك كان يقتل أعوانه أحيانا . ولم يكن يؤمن بالرحمة ويقول إنها بالنساء أحرى وأن على الذين يتصدون لمبادئ الحرب والحكم أن يكونوا كالسيف مضاء وكالطود ثباتا .

٧٢